

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الحلقة الثانية
قَصَصُ السِّيَرَةِ

الْحَسَدُ

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ
تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُم
مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ
وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ،
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ
يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

(قرآن كريم)

كَانَ الْيَهُودُ يَكْرَهُونَ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ
 دِينَهُ يَنْتَشِرُ ، وَأَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَصْبَحُوا أَقْوِيَاءَ بِهِ ،
 فَكَّرُوا فِي أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا ؛ لِيَقْضُوا عَلَى رَسُولِ
 اللَّهِ ، وَيَسْتَرْيَحُوا مِنْهُ . وَلَمَّا كَانَتْ قُرَيْشٌ عَدُوَّهُ
 الْأَشَدَّ ، ذَهَبَ بَعْضُ أَشْرَافِ الْيَهُودِ إِلَى مَكَّةَ ،
 لِيَتَّفِقُوا مَعَ قُرَيْشٍ عَلَى حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ .
 دَخَلَ الْيَهُودُ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ وَسَادَاتِ قُرَيْشٍ ،
 وَقَالُوا لَهُمْ :

— إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ ، حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ .
 وَرَأَى بَعْضُ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ أَنْ يَسْأَلَ الْيَهُودَ عَنْ
 دِينِ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ :

— يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ، إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ

«التوراة» ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن
ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟
كان اليهود يحسدون محمدا ، ويغتاظون منه ،
فقالوا :

— بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .
جعلهم الحسد يقولون : إِنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ خَيْرٌ
مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : « أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هَؤُلَاءِ أَهْدَى
مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ،
وَمَنْ يَلْعَنَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » .

ووافقت قريش على أن تحارب محمداً مع
اليهود ، ولم يكتفِ اليهود بالاتفاق مع قريش على
ذلك ، بل خرجوا يتفقون مع القبائل الأخرى ؛ كانوا
يريدون أن يقضوا على الإسلام ، وأن يطفئوا نور الله .

بلغ المسلمين أن اليهود ألّبوا عليهم قريشاً
والعرب ، وأنّ أبا سُفيان قد خرج على رأس جيشه
ليقاتلهم ، فراحوا يفكّرون ماذا يفعلون ؛ إنهم
لا يستطيعون أن يقاتلوا هذه القوى مُجمّعة ،
ولكنهم يستطيعون أن يدافعوا عن المدينة . إنّ
العرب ما كانوا يعرفون القتال إلاّ وجهًا لوجه ،
فكان الرأي أن يقف المسلمون في وجه قوّات أبي
سُفيان ؛ ولكنّ سلمان الفارسيّ ، الذي خرج من
بلاده يبحث عن الدّين الجديد ، حتى قابل رسول
الله ، وأسلم ، رأى في بلاده ما تفعله الجيوشُ

المُدْرَبَةُ فِي أَثْنَاءِ حِصَارِ الْمَدِينِ ، فَأَقْتَرَحَ حَفْرَ خَنْدَقٍ
عَمِيقٍ وَاسِعٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ ، وَقَالَ :

- أَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْ تَضْرِبَ عَلَى الْمَدِينَةِ خَنْدَقًا ،
فَيُصْبِحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَلَا يَسْتَطِيعُوا اقْتِحَامَهُ .
أَعْجَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الرَّأْيِ ، فَتَنَاولَ فَأَسَا ،
وَضْرَبَ بِهِ يَحْفِرُ الْخَنْدَقَ ؛ وَقَامَ الْمُسْلِمُونَ يَحْفَرُونَ
حَوْلَ الْمَدِينَةِ خَنْدَقًا عَمِيقًا .

وَنَالَ التَّعَبُ مِنَ الرِّجَالِ ، فَرَّاحَ النَّبِيُّ يُشَجِّعُهُمْ
وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ ، كَانَ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ
رَوَاحَةَ ، أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ :

| | |
|--|--|
| لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا | وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا |
| فَأَنْزَلَنُ سَكِينَةً عَلَيْنَا | وَوَثَّيْتُ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا |
| وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا | وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا |

فَرَّاحَ الْمُسْلِمُونَ يُرَدِّدُونَ :

| | |
|---------------------------------------|---------------------------------------|
| نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا | عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا |
|---------------------------------------|---------------------------------------|

وراح سَلْمَانُ يَضْرِبُ فِي الْخَنْدَقِ ، فَاغْتَرَضَتْهُ
صَخْرَةٌ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَرِيبًا مِنْهُ ، فَلَمَّا رَأَاهُ
يَضْرِبُ ، وَرَأَى شِدَّةَ الْمَكَانِ عَلَيْهِ ، ذَهَبَ إِلَيْهِ ،
وَأَخَذَ مِنْهُ الْمِغْوَلَ ، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً ، فَلَمَعَتْ تَحْتَ
الْمِغْوَلِ بَرْقَةٌ ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَلَمَعَتْ
تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ ، فَلَمَعَتْ بَرْقَةٌ
أُخْرَى .

فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ :

- بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا هَذَا الَّذِي
رَأَيْتُ لَمَعَهُ تَحْتَ الْمِغْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ ؟
قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ :

- أَوْقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ ؟

- نَعَمْ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ :

- أمّا الأولى ، فإنّ الله فتح على باب اليمن ،
وأمّا الثانية ، فإنّ الله فتح على باب الشام والمغرب ،
وأمّا الثالثة ، فإنّ الله فتح على باب المشرق .

فى هذه اللحظة الشديدة ، التى كان المسلمون
يحفرون فيها الخندق ، ولا يستطيعون أن يخرجوا
فيها لأعدائهم ، كان رسول الله على ثقة من نصر
الله ، وكان على يقين من أن الله سينصره ، وينشر
دينه فى اليمن وفى الشام ، وفى المشرق والمغرب .

٣

جاء أبو سفيان فى جيش عدته عشرة آلاف ،
وجاء رسول الله فى ثلاثة آلاف ؛ وكان الخندق بين
الجيشين ، وأغلق يهود بنى قريظة حصنهم عليهم ،

كانوا قد عاهدوا رسول الله على أن يعيشوا في
جوار المسلمين في أمان ، ولكن زعيم اليهود الذي
اتَّفَقَ مع قريش على القتال ، جاء إلى الحصن ، وقال
لرئيس بني قريظة :

- وَيْحَكَ ، افْتَحْ لِي .

فلم يشأ أن يفتح له ؛ لأنه كان يعلم أن ما جاء
إليه إلا ليطلب منه قتال محمد ، وقال :

- إِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا ، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي
وَبَيْنَهُ ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا .

- وَيْحَكَ ! افْتَحْ لِي أَكْلَمَكَ .

واستمرَّ يلحُّ عليه ، حتى فَتَحَ له ، فقال له :

- وَيْحَكَ ! جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ .

- وما ذاك ؟

— جِئْتُكَ بِقَرِيشٍ وَالْعَرَبِ ، قَدْ عَاهَدُونِي أَنْ
لَا يَبْرَحُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ .
فَقَالَ زُعَيْمُ بْنُ قُرَيْظَةَ :

— وَيْحَكَ ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ ، فَإِنِّي لَمْ أَرِ مَنْ
مُحَمَّدٍ إِلَّا وَفَاءً وَصَدَقًا .

إِلَّا أَنَّهُ قَبْلَ آخِرٍ أَنْ يَنْضَمَّ بَنُو قُرَيْظَةَ ، حُلَفَاءُ
مُحَمَّدٍ ، إِلَى أَعْدَائِهِ ؛ وَبَلَغَ الْخَبَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،
فَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ سَادَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ ،
وَقَالَ لَهُمْ :

— انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ، فَتَنْظُرُوا أَحَقَّ
مَا بَلَّغْنَا عَنْهُمْ .

وَذَهَبَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْيَهُودِ ، وَسَأَلُوهُمْ عَمَّا بَلَغَ
رَسُولَ اللَّهِ عَنْهُمْ ، فَقَالَ الْيَهُودُ فِي سُخْرِيَةٍ :

- مَنْ رَسُولُ اللَّهِ ، لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ .
وَعَلِمَ سَادَاتُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ ، أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ
انْضَمُّوا إِلَى أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَادُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ،
وَأَبْلَغُوهُ أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ خَانُوهُ ، وَمَالُوا إِلَى أَعْدَائِهِ .

٤

حَاوَلَ الْكُفَّارُ أَنْ يَجْتَازُوا الْخَنْدَقَ ، وَلَكِنْ سَهَامَ
الْمُسْلِمِينَ كَانَتْ تُرْدُهُمْ . وَاسْتَمَرَ حِصَارُ قَرِيشٍ
لِلْمُسْلِمِينَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ ، فَتَضَايَقَ أَبُو سُفْيَانَ ؛ كَانِ
يَحْسِبُ أَنْ سَيَقْضَى عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَنْصَارِهِ فِي يَوْمٍ
وَاحِدٍ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَكَّةَ ، وَلَكِنْ ذَلِكَ الْخَنْدَقُ حَالِ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُحَقِّقَ هَذَا الْأَمَلَ .

وقَفَزَ فُرْسَانُ مِنْ قَرِيشٍ مِنْ مَكَانٍ ضَيِّقٍ فِي
الْخَنْدَقِ ، فَخَرَجَ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ فِي نَفَرٍ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ وَقَابَلَهُمْ ، وَدَارَتِ مُبَارَزَاتٌ بَيْنَ فُرْسَانِ
قَرِيشٍ وَفُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ، انْتَهَتْ بَانْكِسَارِ فُرْسَانِ
قَرِيشٍ . وَلَكِنْ اشْتَدَّ الْبَرْدُ وَالْجُوعُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَنَزَلَتْ بِهِمْ شِدَّةٌ عَظِيمَةٌ بِسَبَبِ الْحِصَارِ ، فَرَاحَ
رَسُولُ اللَّهِ يَدْعُو رَبَّهُ :

— اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، اهْزِمِ
الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ .

وَاشْتَدَّ الْبَرْدُ فِي اللَّيْلِ ، وَصَفَرَتِ الرِّيحُ ، فَدَخَلَ
الْمُسْلِمُونَ خِيَامَهُمْ ، وَكَانَتْ فِي الْخَنْدَقِ ، وَاشْتَدَّتْ
الرِّيحُ فَاقْتَلَعَتْ خِيَامَ قَرِيشٍ ، وَطَرَحَتْ قُدُورَهُمْ ،
فَدَبَّتِ الْفَوْضَى فِي مُعَسْكَرِهِمْ ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَجِدُوا

مَكَانًا يَسْتَخْفُونَ فِيهِ مِنْ غَضَبِ السَّمَاءِ ، وَلَكِنْهُمْ لَمْ
يَجِدُوا مَأْوًى لَهُمْ ، فَاشْتَدَّ بِهِمُ الْكَرْبُ ، وَضَعُفَتْ
نَفْسُهُمْ ، وَتَمَنَّوْا أَنْ تَكْفَ الرِّيحُ ، لِيَعُودُوا إِلَى
مَكَّةَ ، فَقَدْ تَحَالَفَتِ الطَّبِيعَةُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ .

وَهَدَّاتِ الرِّيحُ ، وَأَصْبَحَ الصَّبَاحُ ، فَنَظَرَ
الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَعْسَكِ الْأَعْدَاءِ ، فَوَجَدُوا سُكُونًا
وَهَدُوءًا . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

— مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟

فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ : « أَنَا » .

وَخَرَجَ الزُّبَيْرُ إِلَى مَعْسَكِ قُرَيْشٍ وَهُوَ يَسِيرُ فِي
حَذَرٍ ، فَلَمْ يَجِدْ إِلَّا قُدُورًا مُنْكَفِيَةً ، وَخِيَامًا مُقْتَلَعَةً ،
فَعَادَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مَسْرُورًا وَصَاحَ :
— رَحَلُوا .. رَحَلُوا .

فَشَاعَ الْفَرَحُ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَتَفُوا :
 - لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ
 عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ،
 فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ .

وَحَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ رَبَّهُ ، ثُمَّ قَالَ :
 - الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ .

هـ

انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى دَارِهِ ، وَانصَرَفَ
 الْمُسْلِمُونَ إِلَى دُورِهِمْ ، وَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ سِلَاحَهُ ، فَجَاءَهُ
 جَبْرِيلُ ، وَقَالَ لَهُ :

- أَوْقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ » .

فقال جبريل : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكَ بِالْمَسِيرِ
يَا مُحَمَّدُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ ، فَمُزِلْ
بِهِمْ » .

خَانَ الْيَهُودُ مُحَمَّدًا ، وَتَأَمَّرُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْلَا أَنْ
لَطَفَ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنْقَذَهُ مِنْ حِصَارِ أَعْدَائِهِ ، لَكَانَ فِي
ذَلِكَ الْقَضَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ ، لِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ
حَرْبِ الْيَهُودِ ، وَأَخْرَاجِهِمْ مِنْ جَوَارِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمْ
يَعُدْ لَهُمْ أَمَانٌ .

أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ مُؤَذِّنًا ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ :
- مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا ، فَلَا يُصَلِّينَ الْعَصْرَ إِلَّا فِي
بَنِي قُرَيْظَةَ .

وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي عُدَّةِ الْقِتَالِ ، وَذَهَبُوا إِلَى
حِصُونِ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَلَمَّا رَأَاهُم الْيَهُودُ ارْتَجَفُوا ،
وَدَخَلُوا الْحِصُونَ ، فَأَغْلَقُوهَا عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ

عندهم طعام ولا شراب يكفيهم ، فحاصروهم
المسلمون حتى طلبوا التسليم .

عرض عليهم رسول الله أن يعلنوا إسلامهم
فرفضوا ، وعرضوا عليه أن يحكم بينهم وبين رسول
الله حكم ، فلما جاء الحكم رأى أنهم تآمروا على
خلفائهم ، وأن هذه الخيانة جزاؤها القتل ، فأمر
بقتل الرجال ؛ ونفذ حكم ذلك الحكم في اليهود ،
فأصبحت المدينة للمسلمين ، أورثهم الله إياها ،
وكان الله على كل شيء قديرا .